كليات التفسير الإشاري عند النورسي: الأسس والمقاصد

Nursi's Views on Mystical Exegesis in Its Entirety: Fundamentals and Aims

Abstract

Dr. Idris al-Tarkawi

The research attempts to explore the basics of the principle of the overlap of science and its integration at the time of Badiu'zzaman Al Nursi, and the resulting scientific manifestations and theories of knowledge, the most important of which was the Sufi interpretation theory. The most prominent entrance of this theory; is the search for generics regulating its problematic forms in the nature of its existence Building and research for purposes, on the grounds that the book of ALLAH (holly Quran) and his world are two harmonious sectors in theory's nutrition and supply, by discovering the secrets of things And linking them with patterns and threads that bind them to their creator in terms of instinct, even if the demands and terminology were different in terms of industry. All this without forgetting the linguistic, logical and jurisprudential controls and what they produce of purposeful goals and functional benefits of the theory that increases its affirmation and support the pillars of adopting it. Which in the end helps to find a scientific status to be considered among the other theories of knowledge and the sciences of Islamic law.

Keywords:

Theoretical interpretation, the integration of science, generic, the Holly Quran, Universe.

الملخص

د. إدريس التركاوي[1]

يحاول البحث التنقيب في أساسيات مبدأ تداخل العلوم وتكاملها عند بديع الزمان النورسي، وما ترتب عليها من تجليات علمية ونظريات معرفية كان أهمها نظرية التفسير الصوفي الإشاري. وقد كان أبرز مدخل -في منظور الدراسة- يطل الناظر منه على هذه النظرية؛ هو البحث عن كليات تنظم إشكالها المندرج في ماهية وجودها تأسيسا وتقصيدا، على اعتبار أن كتاب الله المسطور وكونه المنظور مجالان متعادلان منسجمان في تغذية النظرية وإمدادها، من خلال اكتشاف أسرار الأشياء وربطها بأنساق وخيوط تشدها إلى خالقها من حيث الفطرة وإن فرقتها المطالب والمصطلحات من حيث الصناعة. هذا كله دون نسيان الضوابط اللغوية والمنطقية والفقهية وما تنتجه من

غايات مقاصدية وثمرات وظيفية للنظرية تزيد في تقريرها وتدعم أركان القول بها ووجوب استحضارها. مما يسعف في النهاية في إيجاد منزلة علمية تعيد لها اعتبارها بين سائر نظريات المعرفة وعلوم الشريعة الإسلامية.

الكلمات المفاتيح:

النورسي، التفسير الإشاري، تكامل العلوم، الكليات، القرآن، الكون.

* * *

مقدمة

للحقيقة القرآنية خصوصيتها؛ فبعضها متجلية بنفسها، وأخرى متوارية تحسن الإظهار والتخفي؛ لأن ما تنضح به من معنى قد يدغدغ مشاعر البعض فيستسلم لومضات معرفية قليلة مستريحا بها عن الغوص في الأعماق راضيا بالصدف عن اللآلئ،[2] إنها تأبى الإدلاء بكل ما تحمله؛ لأنها محمّلة بأسرار الغيب مشحونة بخزائن الماوراء.

وما كان هذا شأنه في الوجود وضع علامات تنبه عليه فقط وتومئ إليه. وإذ يرتبط المقام بأذهان الناس يزداد الأمر إبهاما؛ لأن ليس كلّ ما في الأذهان هو ما في الأعيان، بل شأن الذهن أن يقارب ويحوم في مثل هذه المواضع.

من هنا كان جوهر التحدي في استدرار لوامع القرآن ومعانيه -في مثل هذه المباحث المعرفية- ليس هو حكاية دلالة تأويلية معينة أو تخريج لغوي أو كلامي قديم؛ وإنما هو إصابة عين الإشكال أو مقاربة جوهره بمنظور الكليات القرآنية والقواعد العلمية منزلة على الواقع الابتلائي الظرفي ومواءمتها مع نسبية جريان الأحداث فيه، لاستفادة الأحكام واستنباط السنن بمنهج جديد، يبدو على صورة جديدة لكنه منسلّ من ذات الصورة الكلية التي نظر بها نظار التفسير القرآني -عدا المغرقين في التأويل اللغوي أو الفلسفي أو الباطني...- سابقا إلى واقعهم المعيش. وهو في هذا السياق نوع انسجام المطلق مع النسبي أو قل هو هنا وفي هذا المقام بالذات: الوحي مع الواقع.

من هذه الزاوية بالذات نظر النورسي إلى حقيقة التفسير عموما والإشاري الصوفي منه على الخصوص. إذ كان التصوف عنده يعد علما أساسيا لم يستغن عنه عبر العصور، والحاجة إليه ماسّة في عصرنا، ولكنَّ المزاولة الإشارية عند النورسي تجعله فوق الدلالة العامة المتداولة للتصوف، فهي تركّز على مسالك إنتاج المعرفية المستفادة من إشارات القرآن الكريم بطريق التدبّر الجامع بين العقل والقلب والمسمى عند

بالتفكّر الإيماني، ذلك أنّ هذا المسلك المعرفي مشحون بمفاهيم وأنساق ودلالات من حقول علمية أخرى مثل البلاغة والمقاصد واللغة والكلام يجعل الناظر يحكم بأن ذلك ليس تصوفا بالمعنى الصناعي المتداول؛ وإنما هي معانٍ وعلوم ومعارف فطرية قرآنية تداخلت مناهجها فصارت جميعا روافد تصب في حوض التفسير الإشاري القرآني.

بمجرد مسحة واحدة لكليات رسائل النور؛ يلفي الناظر نفسه مشدودا إلى ثلاثة أوتاد تشد خيمة الإشارة القرآنية بكل تجلياتها العلمية والوجودية عند النورسي:

فالفراسة والبصيرة منبعها، والقرآن موجهها، ثم المجال الكوني محركها؛ أقصد المنطقة الجغرافية التي نشأ فيها وترعرع ''بلاد الأناضول'' بطبيعتها الخلابة من جمال ألوانها ورقرقة مياهها وحركة أشجارها... وغيرها من الكائنات الجميلة الصافية ذات الطابع ''الفسيفسائي (المتنوّع)'' التي جعلت قلب النورسي مجهرًا دقيقًا يتلقى كل إشاراتها ولوائحها، ثم يسبرها بعيار القرآن كشافها ودليلها على وظائفها وطبائعها.

الملكة والوحي والكون؛ تلك كانت أثافي نظرية التفسير الإشاري عند النورسي باعتبارها منهجا تفسيريا يتداخل فيه العلم بالعمل ويتآخى العقل مع الفن ويتساوق الإيمان مع الوجود. وتأتي كليات القرآن المنبجسة من تجليات الربوبية المطلقة والقدرة السرمدية الإلهية فتنير المشهد على قدر التقاط عين البصيرة لذرات النور المحيطة فيه بالكائنات. من هنا نجد النورسي مولعا بقواعد ومصطلحات النور مشدود الوجدان إلى قاموسه اللفظي والمعنوي؛ لأنه صورة رمزية للإشارات والخواطر الربانية. حتى آل به المطاف إلى ترجمة رسائله التفسيرية بما يدل على ذلك أو هو قطعة منه؛ (كليات رسائل النور)... هكذا؛ إشارة لطيفة منه إلى ما كان يعتلج في باطنه من أسرار ضاربة في عمق إبهام الظاهرة البشرية كما خلقها الله، فلا كاشف لها إلا نوره. فالعملية كلها جدلية بين النور والظلام والكلي والجزئي والكامل المطلق والنسبي المقيد بظروف المحيط والعوارض...

فلا عجب أن نجد عملاق الأناضول يجمع بين الشعاع ومنبعه في رسائله يُعَنون مطالب كتابه بما جد وفاض من نور شعاعات الكليات وإشاراتها، ثم يبقى للقلب والعقل مهمة استقبال الوافد الدليل لتكشف علامات الكائنات ومنازلها والتعرف على طبائعها ووظائفها، علما بأن الكليات لا تعادي العقل والقلب والفطرة؛ بل هي مزيج متناسق من قواعد العقل وفيوضات القلب وأبجديات الفطرة ! لا مجال للتفريق بين تلك المصادر العلمية ومجالاتها. وأي محاولة للتفريق أو التفكيك؛ تعد نسفا لنفس

تلك الكليات، فلا جرم كانت عند النظار هي أساس الدين كله وكماله وغدت منظاره الكشافي الأبدي إلى انقطاع أصل التكليف. وهي المقصود بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾. المائدة:٣ 3

تأتي هذه الدراسة للكشف عن نظرة النورسي للتفسير الإشاري القرآني وفق مبدأ تكامل العلوم عنده وعلى وزان ما تمليه الكليات القرآنية الكونية والإيمانية التوحيدية من سداد منهجي وضبط علمي معرفي، يعد الخوض في الإشارات في غيابهما؛ ضربا في متاهات الجهل وتجاسرا على حقائق الغيب، فيغدو الخائض فيها مثل الخابط خبط عشواء؛ فلا هو ساكن في ظلمة الليل ولا هو مبصر بنور النهار!

أولا: إشكال التفسير الإشاري في مناهج العلوم

المقصود بالتفسير الإشاري هو مجموع المعاني والحكم والمقاصد المستفادة من فحوى النص الشرعي، سواء كان المفيد نفس ذلك اللفظ المنطوق به أو كان المفيد العقل أو البصيرة والفراسة. فهذه الثلاثة هي قنوات رصد الإشارات عند النظار في الأصول والتفسير والتصوف، باعتبار هذه العلوم مقصودة بالأصالة من الشريعة وهي المفيدة لمضامين التخلق والامتثال التعبدي واضعة إياها نصب عين المكلف.

ولم تكن علوم اللغة وأصول التفسير وأصول الفقه سوى علوما خادمة تكميلية أتت لضبط التسيُّب الذي لحق تلك المعارف الأصلية عَرَضًا كما يشهد بذلك تاريخ تدوين العلوم. أما التصوف -وهو المقصود عندنا هنا بالقصد الأصلي- ففيه الإشكال: هل هو علم ناضج أم حِكَم ولوامع وإشارات لا تزال رقبتُها خاضعة لزئبقية الليونة الاصطلاحية والتيه المفهومي الباطني؟ ولعل دمج الشاطبي الفقه بالتصوف في الموافقات وتأطيرهما تحت الكلي إشارة واضحة إلى إحساسه بالإشكال.[4] وهو الذي دفع أيضا ابن السبكي إلى القول ناقلا عن أحد شيوخه: ''إن العلوم ثلاثة: علم نضج واحترق، وعلم نضج وما احترق، وعلم ما نضج وما احترق''،[5] فمثل للأخير بعلمي التفسير والبيان.[6] والسبب في إلحاق البيان بالتفسير هو سيطرة الذوق عليهما، تماما كالتصوف؛ الذي أصبح مرتعا للخطأ والخطل، وغدت الخرافة هي المشيمة المغذية لمعانيه في جل أطواره التاريخية التي مر بها.

ثم زاد الطينَ بلَّةً كونُه مادة للتفسير الإشاري! فصار الإشكال مضاعفا مرتبطا بالتنقيب عن حقيقة التصوف العلمية أولا ثم بالتنقيب عن وظيفته التفسيرية ثانيا حين يرتبط بعلم آخر أشد ليونة وأعظم خطورة منه وهو التفسير.

قال الغزالي مشيدًا به في سياق تصنيفه للعلوم والتعريض بالتفسير الظاهري: ''علمُ التفسير الظاهر، وهو الطبقة الأخيرة من الصَّدفة القريبة من مُمَاسَّة الدُّرّ، ولذلك يشتد به شَبَهُهُ حتى يظن الظَانُّون أنه الدُّرّ وليس وراءَه أنفسُ منه، وبه قنع أكثر الخلق، وما أعظمَ غُبْنَهُم وحِرمانَهم، إذ ظنوا أنه لا رتبة وراء رُتبتهم[7]''!

من هنا سيقت معالم إشكال الهوية في التفسير الإشاري الذي يعتبر التصوف مادته. وكثير من النظار بحثوا في الإشكال بمسالك تقارب فهومهم وتساوق تخصصاتهم، بيد أن ما يصادف المتأمل في منهج طرق عملاق الأناضول لهذه النظرية هو تداخل العلم بالعمل والقرآن بالوجود في تأصيل النظرية، وربطها بقواعد قادرة على إخراجها من ''زئبقيتها'' وعدم انضباطها في السلوك والتصوف إلى ''صلبيتها'' وانضباطها في الكليات الفطرية القرآنية والكونية. مما يؤهلها لتكون أنموذجًا آخر[8] وصورة جلية لتكامل كليات القرآن مع مواقع الوجود. فما الأسس التي اعتمدها بديع الزمان لرصد النظرية؟ وما هي مشاربها العلمية المجلية لحقيقة التكامل المعرفي فيها؟ وما مقاصدها وتجلياتها؟

ثانيا: أسس التفسير الإشاري الكلية عند النورسي

١- الأساس القرآني

المقصود أن القرآن الكريم مصدر الإشارات وموجهها عموما ومركز انطلاقها ''لأن التنزيل كما يفيدك بدلالاته ونصوصه؛ كذلك يعلّمك بإشارته ورموزه''،[9] ولأنه ''الجامعية الخارقة لمقاصد القرآن ومسائله ومعانيه وأساليبه ولطائفه ومحاسنه''.[10] وسماه الشاطبي ''الاعتبار القرآني'' في مقابل ''الاعتبار الوجودي''،[11] أي الذي يأخذ ماهيته من وجود الكائنات وإدراك سر المناسبات بينها بخلاف الاعتبار القرآني وسيأتي في مبحثه.

والمقصود أن الأساس القرآني هو مجموع القوانين اللغوية والمقاصدية والعلمية التي سطرها النورسي -مبينا منبعها في القرآن- ضوابطَ لاستدرار الإشارات دون الاستنجاد بالكائنات. فههنا عندنا أساسان كليان متقابلان هما مصدر الإشارات: الأساس القرآني اللغوي والأساس الوجودي الكوني. فماذا عن مكونات الأول؟

أ- كلية هداية القرآن

نزل القرآن لهداية الناس. هذا هو مقصده الكلي الجامع، بل هو روح القرآن وباطنه النوراني الخارق، ذلك ''لأن نور الهداية تجسَّمَ فصار نفس جوهر القرآن، كما

يتجسم لونُ الحمرة فيصير قرْمِزاً''.[12] ''فهو أكمل الكتب، فهو يقيني؛ إذ كمال الكتاب باليقين، فهو مجسَّم الهداية للبشر''.[13] وشأن الهداية أن تبوح بأسرارها ولوامعها ولوامحها إلى من رزقوا أجهزة الاستعداد والاستمداد من قلب صافٍ وعقل مُتَّقِد وهم المؤمنون . يقول: ''هداية القرآن بُراقٌ إلهي أهداه للمؤمنين ليسلكوا، وهم عليه في الطريق المستقيم سائرين إلى عرش الكمالات''.[14]

إذا كان كذلك وكانت الهداية هي مسلك المرور الصحيح على الصراط المستقيم إلى الفوز بالنعيم في الآخرة؛ كان لابد لزوما أن تحمل أسرارا في الدنيا لفهم القرآن وتنصب علاماتٍ في صورة مدارج يرتقي عبرها السالكون إلى تذوق القرآن واكتناه حكمه الباطنية الدقيقة اللانهائية. يقول في تفسير صدر سورة البقرة: ''تنكير (هدى)؛ فيه إيماء إلى نهاية دقة هداية القرآن حتى لا يُكْتنه كُنْهها، وإلى غاية وسعتها حتى لا يُحاط بها علماً''.[15]

من هنا حقا يمكن وصفها بباطن القرآن كما فعل أبو إسحاق الشاطبي إذ قال يصف الاعتبار القرآني: ''... فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين وبحسب التكاليف وأحوالها لا بإطلاق . وإذا كان كذلك فالمشي على طريقها مشي على الصراط المستقيم... فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نور البصيرة فيه حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك''.[16] أو بتعبير صاحبنا: ''... لأن القرآن الكريم قد نزل من العلم المحيط، فيمكن أن تكون جميع معانيه مرادة، إذ معاني القرآن لا تنحصر في واحد أو اثنين من المعاني كما ينحصر كلام الإنسان الحاصل بإرادته الشخصية وبفكره الجزئي المحدود''.[17]

فهذه النصوص جميعها تعد تقعيدا لحقيقة الأساس القرآني أو الاعتبار القرآني، حيث ترجع إلى الاحتفال بمرامز إشارية ومعانٍ باطنية تتدفق من غير توقف، يلوح بها النظر القرآني عند التدبر. لكن باعتبار كلي الهداية التي تخص أصحابها دون غيرهم.

ب- كلية شمول القرآن

هي خاصية من أعلى خصائص القرآن ومقصد من مقاصده العليا الحاكمة لاحت مع أول لوائح التشريع الإسلامي بقصد تفهيم الخلق حقيقة القرآن، وأنه كتاب ينظم كليات كافية لإدخال جميع المكلفين تحتها بمختلف أجناسهم وطبقاتهم في اللغة والفهم والتدبر كما في اللون والعرق والقبيلة. فصار كل منهم يدلي بدلوه في الفهم

ويستخرج من الدرر على قدر طاقته وبحسب قربه منه إيمانا وتسليما وإذعانا وخضوعا، إذ تنفتح الإشارات والإيماءات المدفونة، كما تبرز العبارات والمنطوقات الصريحة؛ لأنه كلام الله الأزلي المحيط بما يتصور في الذهن البشري، وما لا يتصور فيه ولا له طاقة على فهمه أو إدراكه. يقول: ''ولما كان القرآن الكريم خطاباً أزليا للجن والإنس بطبقاتهم كافة، فكل طبقة من البشر تأخذ إذًا حصتها من كل آية من القرآن الكريم، وكل آية أيضا تُشبع أفهام كل طبقة من الناس، أي لكل آية معانٍ متنوعة متعددة ضمناً وإشارة.

نعم! إن سعة خطاب القرآن وشمول معانيه وإشاراته ومراعاته درجات أفهام الطبقات عامة ومداركهم من أدنى العوام الى أخص الخواص تبين: أن كل آية لها وجه متوجه إلى كل طبقة من الناس''.[18]

وهذا معنى كونه شاملا أي محيطا بجميع طبقات الفهم البشري المتفتقة من قلوبهم وعقولهم، كل حسب درجة تدبره وإدراكه ''فلكل آية طبقات كثيرة من المعاني. ولأن القرآن الكريم قد نزل من العلم المحيط، فيمكن أن تكون جميع معانيه مرادة، إذ معاني القرآن لا تنحصر في واحد أو اثنين من المعاني كما ينحصر كلام الإنسان الحاصل بإرادته الشخصية وبفكره الجزئي المحدود''.[19]

ج- كلية التنزلات الإلهية إلى عقول البشر

هي قاعدة كلية تفيد مراعاة عوائد الناس في تخاطبهم وتواصلهم بحسب فهومهم وما تدلي به عقولهم تجاه الكون والكائنات. والمقصود بـ ''التنزلات الإلهية إلى عقول البشر؛ تأنيس الأذهان وتفهيمها، كمن تكلم مع صبيّ بما يألفه ويأنس به. فإن الجمهور من الناس يجتنون معلوماتهم عن محسوساتهم، ولا ينظرون إلى الحقائق المحضة إلا في مرآة متخيلاتهم ومن جانب مألوفاتهم... وأيضا المقصود من الكلام: إفادة المعنى''.[20]

غير أن مجال تأثيرها القلب والحس كما قال: ''هي لا تتم إلا بالتأثير في القلب والحس''.[21] ومن هنا تنبجس عين الحقيقة فيها؛ ذلك لأن قلوب بني آدم وضعت في الكون مرايا ترتسم فيها حركات الكائنات التي تموج على ظهر الحس في الوجود، فيقتنص العقل أحكاما منها على قدر طاقته في فهم وتدبر تلك الحركات. فلا جرم كان التفاوت لازما في الاقتناص كما كان في فهم الخطاب الشرعي الذي سطر على وزان تلك التنزلات، ''فلهذا وضع القرآن صورَ المتشابهات منظاراً على نظر الجمهور''.[22] يقول الشاطبي داعما النورسي في القول بالقاعدة: ''تَنَزَّلَ (القرآن) لهم بالتقريب

والملاطفة والتعليم في نفس المعاملة به قبل النظر إلى ما حواه من المعارف والخيرات (...) وهو أصل التخلق بصفات الله والاقتداء بأفعاله''.[23]

فالقاعدة راجعة في طبيعتها ابتداء إلى أصل خلقي تربوي ينبع من مشكاة التصرفات الإلهية الحسنة تجاه الخلق، إذ ما وجد في القرآن من إيماء أو إشارة إلى فعل حسن إلا والقصد منه نصبه أمام المكلفين للاقتداء به والتخلق بمضامينه، كما هي في الصفات الإلهية كالرفق ورفع الحرج والملاطفة... وغيرها من الكيفيات والهيئات الخلقية التي حملت قضايا الخطاب الشرعي والوحي الإلهي. فهو نظر في مقصد الخطاب وغايته التي تحملها هيئاته اللغوية من مجاز واستعارة وتمثيل... أي بتعبير آخر: تصوير العناية بهم من خلال مراعاة مداركهم وفهومهم، والمقصدان معا يجتمعان في الأسلوب التصويري؛ ''فإذاً يصوّر الحقائق بتمثيلات بناء على ما تقتضيه العناية مع التنزلات الالهية''.[24]

فهناك إذن تجد نظرية التفسير الإشاري منزلتها، لأنها راجعة إلى –والمقالة للشاطبي– ''التنزلات الفائقة الحسن في محاسن العادات''.[25] فالتنزلات الإلهية إذن هي طرائق توصيل الخطاب المتفاوتة المدارج، وإذا كانت كذلك وجب أن تتفاوت على وفقها فهوم المكلفين، إذ الفهم يتبع المفهوم.

د- كلية النظم

ذلك لأن ''القرآن الكريم مثلما يبين الحقائق بمفاهيمه وبمعناه الصريح يفيد كذلك معاني إشارية كثيرة بأساليبه وهيئاته''.[26] والمقصود بالهيئات والأساليب هو عين النظم. والفرق بين هذه القاعدة والتي قبلها أن الأولى مرتعها في مقاصد الخطاب القرآني الكلية؛ نصبت للاقتداء بها من قبل المكلفين في تعليمهم لبعضهم البعض ومراعاة تفاوت أذهانهم. أما الثانية فتلتصق أكثر بأسلوب الخطاب المبثوث في تركيب الكلام ونظمه. فهذه متعلقها النظم اللغوي وهيئاته الأسلوبية والأخرى متعلقها مقاصد الخطاب المجرد عن النظم. فهما يتعلقان ببعضهما تعلق الوسيلة بغايتها.

فمعنى النظم هو تداعي الكلمات والتزاز بعضها ببعض وتعوانها وتساندها للوقوف على مقصد التركيب؛ سواء في الآية أو في السورة أو في القرآن كله. يقول النورسي: ''إن من أساس البلاغة الذي به يبرق حسن الكلام؛ تجاوب الهيئات وتداعي القيود وتآخذها على المقصد الأصلي، وإمداد كلّ بقدْرِ الطاقة للمقصد، الذي هو كمجمع الأودية أو الحوض المتشرب من الجوانب''.[27] لابد إذن أن تتباين الأنظار في الوقوف على المقصود واستنباط الغرض الكلي لأن في النظم شعاب وأودية من الدلالات

الخفية المحفوفة بمخاطر ومفاوز قد لا ينجو منها الشادي في علوم اللغة والبلاغة والمنطق ومقاصد الشريعة. قال: ''فلأجل هذا السر والحكمة أَكْثَرَ القرآنُ من حذف الخاص للتعميم ليقدِّر كلٌ مقتضى ذوقه واستحسانه. ولقد نظم القرآن جُمَله ووضعها في مكان ينفتح من جهاته وجوه محتملة لمراعاة الافهام المختلفة ليأخذ كلُ فهمٍ حصته. وقس!..

فإذاً يجوز أن يكون الوجوه بتمامها مرادة بشرط أن لا تردها علوم العربية، وبشرط أن تستحسنها البلاغة، وبشرط أن يقبلها علم أصول مقاصد الشريعة''.[28]

ولب النظم عند النورسي هو الاستعارة والتمثيل. يقول: ''اعلم! أن كمال الكلام وجماله وحُلته البيانية بأسلوبه. وأسلوبه صورة الحقائق وقالب المعاني المتخذ من قطعات الاستعارة التمثيلية. وكأن تلك القطعات ''سِيمُوطُوغْرَاف'' خياليّ؛ كإراءة لفظ ''الثمرة'' جنتها وحديقتها. ولفظ ''بارز'' معركة الحرب''.[29]

فمن خلال هذا التفاوت في النظم تبدو دلالات الكلمات والجمل أيضا متفاوته في التجلي؛ بعضها أرق من بعض وأقوى في العمق وأوغل في الإبهام، وذلك لما يتضمنه الأسلوب من مدارج منطقية تلائم حركة الفهم البشري النسبية تجاه الخطاب . يقول: ''إن أسلوب الكلام قد يكون باعتبار خيال المخاطَب كما في أساليب القرآن الكريم فلا تنسَ. ثم إن مراتب الأسلوب متفاوتة؛ فبعضها أرقّ من النسيم إذا سرى يرمز إليه بهيئات الكلام. وبعضها أخفى من دسائس الحرب لا يشمه إلا ذو دهاء في الحرب؛ كاستشمام الزمخشري من ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾يس:٧٨ أسلوب ''مَن يبرز إلى الميدان''.[30]

غير أن هذا كله مبني على وجوب استنباط سر المناسبة بين الأشياء والكائنات في الخارج؛ لأن اللغة في النهاية تصوير وتوصيف وحكاية ما في نظام الكائنات في الوجود . يقول: ''إن التمثيلات مؤسسة على سرّ المناسبات بين الأشياء، والانعكاسات في نظام الكائنات، وإخطار أمور أمورا؛ كإخطار رؤية الهلال في الثريا في ذهن أبناء النخلة غصنَها الأبيض بالقدم المتقوس بتدلي العنقود''.[31]

إن سر المناسبة بين هاته الأشياء كامن في صدفة الطبقية في الإدلاء بالمقصود ، كل كائن يدل بقدر مكانته في الوضوح أو الإبهام، فكانت اللغة واصفة لما هو موجود بمختلف طبقاته الدلالية، فلا عجب أن تكون فهوم الناس والمجتهدين والفلاسفة متناسقة مع المقصود. يقول بديع الزمان في قطعة لغوية يصور بها هذا المعنى في ألطف بيان وأعذب تخريج: ''إن سلامة الكلام وملاسته واعتدال مزاجه؛ بتقسيم

العناية وتوزيع خلع الأساليب حسب ما يستحقه كل قيد. فان كان الكلام حكاية؛ فيجب على المتكلم فرضِ نفسه في موضع المحكي عنه، إذ لا بد من الحلول في المحكي عنه والنزول ضيفاً إلى قلبه والتكلم بلسانه لدى تصوير أفكاره وحسياته. وإذا تصرف في ماله فيجب العدالة بتقسيم الرعاية والاهتمام -الدالين على القيمة والمكانة- بأخذ كل قيدٍ للكلام واستعداده ورتبته، بنظر الاعتبار، وإلباس الأساليب على قامة استعداد كل قيد. حتى يتحلى المقصد بما يناسبه من أسلوب، إذ أسس الأساليب ثلاثة:

الأول: الأسلوب المجرد، كالأسلوب السلس للسيد الشريف الجرجاني ونصير الدين الطوسي.

الثاني: الأسلوب المزين، كالأسلوب الباهر الساطع لعبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

الثالث:الأسلوب العالي، كبعض الكلام المهيب للسكاكي والزمخشري وابن سينا أو بعض الفقرات العربية لهذا الكتاب، ولاسيما في المقالة الثالثة، فهي تبدو مشوشة إلا أنها تحوي فقرات رصينة. ذلك لأن علو الموضوع قد أفرغ هذا الكتاب في أسلوب عالٍ. وما صنعتي أنا إلا جزئية فيه.

إن كنتَ في بحث الإلهيات وتصوير الأصول، فعليك بالأسلوب العالي، ففيه الشدة والقوة والهيبة، بل عليك إلا تغادر هذا الأسلوب.

وإن كنت في بحث الخطاب والإقناع، فعليك بالأسلوب المزيّن ذي الحلي والحلل والترغيب والترهيب.

وإن كنت في المعاملات والمحاورات وفي العلوم الآلية؛ فعليك بالأسلوب المجرد وحده، فهو الذي يحقق وفاء الموضوع واختصار البحث وسلامة القصد ويجري على وفق السليقة حتى إنه يبين جماله الذاتي بسلاسته''.[32]

ومن هنا يظهر أن للنظم القرآني اسقلاليته الذاتية عن إدماج العلوم التي تبدو أجنبية عنه فيه واستحضارها معه إلا للضرورة. لأن المقصد الكلي إذا وضح وسط المعاني وجب أن يكون الأسلوب الذي يحكيه حاملا لجوهره بمختلف الدلالات العبارية والإشارية القريبة والبعيدة، فلا يحتاج إلى غير اللغة ومقاصدها لاستجلاء غموضه واكتناه معناه؛ ذلك ''لأن قناعة الكلام واستغناءه وعصبيته، أن لا تمدّ عينيك إلى أسلوب خارج المقصد. فلو أردت أن تفصّل أسلوبا على قامة معنى من المعاني، فالمعنى نفسه والمقام والصنعة والقصة والصفة يعينك بتفاريق لوازمها وتوابعها،

فتخيط من تلك التفاريق لباس أسلوبك. فلا تمد نظرك إلى الخارج إلا مضطراً. أو بتعبير آخر: قاطع أموال الأجانب، فهو أساس مهم للحيلولة دون تبعثر ثروة البلاد. فمقاطعة الأجانب تزيد قوة الكلام، أي: إن المعنى والمقام والصنعة يفيد الكلام بدلالته الوضعية، إذ كما يُظهر الكلام المعنى بدلالته الوضعية، فمثل هذا الأسلوب يشير بطبيعته إلى المعنى".[33]

إن قاعدة النظم معناها في النهاية استحضار روابط الكلم وعلاقاته العقلية التي تبثها في الذهن من أساليب البيان والبديع، تلاؤما مع حركة التدبر العقلية النسبية التي تمحضت في خلقة الإنسان للطبقية في الفهم والتفاوت في الاستنباط؛ حكمةً من العلي القدير الذي شاءت مشيئته أن يكون لب المسؤولية والتكليف مبنيين على تينك الخاصيتين، فلا جرم كانت أساليب الخطاب موضوعة ابتداء على التلاؤم معها. فكانت دلالة الإشارة التفسيرية منها.

ه- منطق علاقة الجزئي بالكلي في القرآن

يتجلى الإعجاز اللفظي في القرآن في كون تلك الألفاظ والكلمات كليات نصبت لاحتضان ما لا ينتهي من الصور والجزئيات المتولدة من تقلبات الأحداث وتبدلاتها السريعة في الزمان والمكان. ولذلك توصف عند النظار بأنها موجزة. والنورسي منهم حيث يقرر أن "إيجاز القرآن جامع ومعجز، فلو أُنعم النظر فيه؛ لشوهد بوضوح أن القرآن قد بيّن في مثالٍ جزئي وفي حادثة خاصة، دساتيرَ كلية واسعة وقوانينَ عامة طويلة، وكأنه يبين في غرفة ماءٍ بحراً واسعاً".[34]

إنها المركز المشع دائما، ترغب من الإنسان التأقلم معها بأخذه منها ما يواكب غيرها ويحتويه. يظل عقل الإنسان وقلبه ببعده عنها مثل الكواكب المظلمة تغدو في حالة خسوف. وحيث تزول الحواجز والحجب يرفع الستار للشعاعات واللمعات الإشارية للتدفق على الشعور والمواجيد، حيث تنعكس على مرآة القلب والروح فتنكشف الظلمة وتظهر المخفيات وتعرف الأشياء بأسمائها وصفاتها، وتتضح على قدر قابلية المرآة للشعاع ومدى صقالتها ولمعانها وقرب النور منها. من هنا طالما قرر النورسي أن الآية الواحدة تطوي بين أجنحتها ما لا ينتهي من الجزئيات القريبة والبعيدة الإشارية والعبارية، تفتح كنوزها على قدر استعداد المتدبر لها وصفاء شعوره تجاهها "فكلٌ يستفيض بقدر استعداده من فيض القرآن، ويأخذ رزقه من المائدة السماوية العامرة".[35]

لذا كانت العبرة بالمعنى الكلي لأنه هو الأصل في التدبر، والجزئي تابع له فرد من أفراده، ذلك أن ''معنى الآية شيء، وأفراد ذلك المعنى وما يشتمل عليه من تلك المعاني من الجزئيات شيء آخر. فإن لم يوجد فرد من أفراد كثيرة لذلك المعنى الكلي؛ فلا يُنكر ذلك المعنى الكلي''.[36]

ومن هنا تتحدد فلسفة الإسلام في الإفهام مُنَزَّلة على طرائق التفكير البشري المحكومة بالتفاوت في الفهم والتفهم . لذا كانت الإشارات المنضبطة -حتى ولو لم توجد- مقصودة مندرجة تحت مظلة الكلي كما الدلالات المنطوقة الصريحة، لأن الإعجاز في اللفظة القرآنية أو الآية مهيأ لاحتضانها ابتداءً كما سبق أن بينا. يقول النورسي: ''لو أن فرداً واحداً من تلك المعاني، لا وجود له في الواقع إلاّ في ألسنة الناس، يصح أن يكون داخلاً ضمن ذلك المعنى الكلي، رعايةً لأفكار العامة''.[37] من هنا طفق يعقب على بعضهم مستصحبا هذا القانون بقوله: ''ألا ترى هؤلاء المغمورين بسُكر الجغرافية وعلم الفلك الذين لا ينصفون، كيف يقعون في خطأ فيغمضون عيونهم عن المعنى الكلي الذي هو حق وحقيقة وصدق، فلا يرون مصدّقات الآية الكثيرة جداً، ويتوهمون معنى الآية منحصراً في فرد خيالي عجيب. فرشقوا الآية الكريمة بالحجارة، فارتدت على رؤوسهم فكسرتها، ففقدوا صوابهم وإيمانهم''.[38]

المحصّلة: هكذا تتحدد علاقة الجزئي بكليه باعتبارها قاعدة منهجية ومسلكا وظيفيا -كما أخواتها- يفتح المجال للإشارات الصوفية والذوقية، لكن لا تخرج جميعها عن مهيع القرآن وأساليبه اللغوية والبلاغية الإعجازية، فهو مجال حراكها والمشيمة التي تحتضنها وتنميها. فإذا عاد التدبر تفكرا وخرج من العلم اللغوي المسطور إلى الكون الخارجي المنظور احتاجت النظرية إلى مرتع آخر تترعرع فيه وذلك في:

٢- الأساس الوجودي

أ- حقيقته

المقصود به جملة الكائنات التي تسبح في الكون بانتظام وببلاغة تربطها خيوط موضوعة نصب عين الإنسان مجالا للتفكر والتدبر وإدراك الأنساق الفلسفية التي تربطها بالغيب. تبدو هذه الأنساق والخيوط مشدودة في عقد متراص ينظم لآلئ خفية ودررا مستورة، تماما كما يخفي نظم الجمل والكلمات والحروف معانيَ وبياناتٍ استعارية ومجازية تبدو غير طافية فوق سطح الدلالات الصريحة. وهي إشارة لطيفة من بديع الزمان يلمح إلى هذا التناسب بين اللغة والوجود قائلا: ''إن الكائنات في

غاية البلاغة قد أنشأها وأنشدها صانعُها فصيحةً بليغة، فكل صورة وكل نوع منها – بالنظام المندمج فيه– معجزة من معجزات القدرة. فالكلام إذا حذا حذو الواقع، وطابق نظمُه نظامَه حاز الجزالة بحذافيرها''.[39]

فالكائنات مثل الكلمات بل هي نفسها، كلاهما نواته في الغيب وثمرته في الأذهان والوجود: ''إن شجرة الكائنات شبيهة بشجرة طوبى الجنة؛ جذعها وجذورها متوغلة في العالم العلوي، وأغصانها وثمراتها متدلية إلى العالم السفلي؛ لذا فان هناك خيطاً ذا علاقة نورانية ابتداءً من مقام الثمرة في الأسفل إلى مقام النواة الأصلية''.[40] من خلال هذا الترابط اللزومي في الكائنات بين النواة والثمرة يتضح أنها مسقية بمخفيات وأسرار غيبية باطنية تغذي شجرتها قبل إثمار الثمرة، بل الثمرة حاملة في جوهرها لذلك، تتفتق وهي مكتنزة بإشارات غيبية تسربت إليها من نواة شجرتها الأصلية.

ب- نظام الكون والكائنات في الوجود

ليست الكائنات إذن سوى كلمات مجسمة هي صورة حية خارجية للكلمات في اللفظ والقرآن، إذ القرآن المسطور معادل موضوعي للكون المنظور. فكان التدبر فيها حركة لتتبع ما خفي منها من الإشارات والإيماءات الجزئية وربطها بكلياتها المقاصدية في الوجود من خلال البحث عن سر التناسب بينها كالألفاظ والعبارات تماما. يشير النورسي إلى هذا بقوله: ''ليس للكائنات وجه رقيق فقط، بل فيها وجوه عمومية مختلفة طبقا على طبق، ولفوائدها جهات كثيرة عمومية متداخلة، وطرق الاستفادة متعددة متنوعة. مثلاً: إذا كان لك روضة تستفيد منها بجهة ويستفيد الناس بجهة أخرى، كالاستلذاذ بالقوة الباصرة. ولا جرم أن استفادة الإنسان تحصل بحواسه الخمس الظاهرة وبحواسه الباطنة وبجسمه وبروحه وكذا بعقله وقلبه وكذا في دنياه وفي آخرته وكذا من جهة العبرة وقس عليها..؛ فلا مانع من استفادته بوجه من هذه الوجوه من كل ما في الأرض بل العالم.

إن سر المناسبة بين الأشياء صيَّر أكثر الأمور كالمرايا التي تتراءى في أنفسها؛ هذه في تلك وتلك في هذه. فكما أن قطعة زجاجة تريك صحراء واسعة؛ كذلك كثيراً ماتذكِّرك كلمةٌ فذة خيالا طويلا، وتمثل نصب عينيك هيئة كلمة حكاية عجيبة. ويجول بذهنك كلام في عالم المثال المثالي. كما أن لفظ ''بارَزَ'' يفتح لك معركة الحرب، ولفظ ''ثمرة'' يفتح لك باب الجنة وقس!''[41]

إن حقيقة النظام إنما تنبع من علاقة الكائنات بعضها ببعض من خلال مقاصدها الحكمية التي تحوم حولها وتشع بها، إذ ''إن في الكائنات نظاماً أكمل قصدياً، وإن في

الخلقة حكمة تامة، وأن لا عبثية في العالم، وأن لا إسراف في الفطرة. والمزكي لهؤلاء الشواهد: الاستقراء التام بجميع الفنون التي كل منها شاهدُ صدق على نظام نوع موضوعه''.[42] هذا النظام الثابت بمنهج الاستقراء هو نفسه النظام الثابت في علاقة الألفاظ في اللغة ، يستحيل أن تتضح الحقائق بمقاصدها الوجودية بدونه. فيحتاج الأمر حقا إلى تتبع الجزئيات لاستخلاص المعنى الكلي، كما إذا فهمنا من معنى الشجرة المنتصبة في زاويتها كلية توحيد الخالق أو كلية الدلالة على الجنة،كما مثل أعلاه حين قال: ''ولفظ (ثمرة) يفتح لك باب الجنة وقس''، لكن هذا كله إنما هو دلالة إشارية تلوح بها الكلمة وسط النظم.

من هنا وجب التدرج في التتبع وكشف الغوامض وتتبع الإشارات ''فيلزم التدرج في المعاني المتسلسلة والحذر من الاشتباك العشوائي بدون نظام... لأن القوانين الكلية هي أساس الصنعة الكونية وحقيقة النظام في الكون وإن كثرت الجزئيات. وهكذا؛ فمنابع هذه الكثرة والجزئيات ومعادنها الأساس لابد أنها قوانين كلية، وتجليات كلية للأسماء الحسنى''.[43]

إن مخزونية النظام التي تموج فيها حركات الكائنات ودلالاتها ووظائفها إنما توجب ضرورة إعمال القلب لفك طلسم إشاراتها فضلا عن عباراتها الظاهرة، ومن هنا خطورة هذا الأساس الوجودي؛ لأن للقلب فيوضاتٍ غير محدودة، وقد يسرح العقل فيما لا يوَدُّه الشرع! وذلك راجع بالأساس إلى طبيعة الإشارات واللوائح التي تُقذف إلهاما وتحديثا في قلوب أصحاب الأحوال. وبسبب صعوبة إيقافها في عالم الروح لشدة تناغمه مع الكون ومخلوقاته وما ينساب منها من حوادث وظواهر؛ فإن القلب يسارع في بادئ النظر إلى الحكم عليها. ومن هنا خطورتها. ولهذا أوصى النظار بالتوقف فيه لصعوبة مورده. يقول شيخ المقاصد: ''... فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع لأنه بخلاف الأول؛ فلا يصح إطلاق القول باعتباره في فهم القرآن''.[44] إذ لا يسمح لأي عارف مبتدئ أو ناظر معتبر أن يرى شيئا في الكون ثم يجعله دلالة تفسيرية من دلالات القرآن أو ظاهرة وجودية تصور حقيقة قرآنية! بل المفروض العكس -إلا لأرباب الأحوال- بحيث يربط علمه الذهني بالحقائق الخارجية وينقح تصوراته على ميزان ما في الخارج من كليات وقواعد دون الظواهر النسبية المؤقتة التي تعرض للذهن فيخالها الحقيقة. إذ ''لو تجسمت تصورات المتكلم في الخارج -هاربة من الدماغ- لا يردّه الخارج... فلا يخفى ان شأن الآلات التي تثقب السطح نافذة إلى الحقيقة، وتدل على الطبيعة والحقيقة الخارجية، وتربط الحكم الذهني بالقانون الخارجي''.[45]

هنا فقط يبدو الإبصار جليا تجاه هاته المخلوقات وحركاتها؛ لأنها بعيدة عن ظلام النفس والهوى وقهرهما الشهواني، وإذًا؛ فإن الكون يصير عبارة عن تموجات متكاثفة ومتراصة تنطلق بقوة إلى إحساس الناظر المتدبر حتى إذا اصطدمت بوجدانه؛ راحت تنعكس عليه ظلالا من التأوهات الجمالية والحكم اللدنية التي تبدو غريبة في الحس البليد والطبع المتكلس.

إن الكون مجال لسياحة قلبية، ترتشف من أعيان الكائنات التي يموج بها في مساحة ممتدة وغير متناهية، لأن طبيعتها مسكوكة بسكة الكلمات القرآنية غير المتناهية هي كذلك ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.الكهف:١٠٩ وليست الجسوم والأعراض المادية الحاملة لتلك الجواهر سوى علامات مادية تظهر وتختفي لتترك بعد اختفائها وظيفتها التعبدية الكونية التي حددها لها الخالق في حدود التعريف به للإنسان. فهي خادمة له لكن خدمة تعبدية منوطة بها تكوينا وخلقا. فكان لابد من استنطاق هذه الكائنات والحفر في أسرارها الكونية الملكوتية بمعاول القرآن نفسه؛ أليس هو الكتاب المعرف بمجالها ووظائفها؟ فكيف يطلق للقلب السياحة الشعورية في مجالها دون الرجوع إليه خضوعا لكلياته العلمية الشاملة؟

لهذا كله وجب استحضار حقائق القرآن عند النورسي ضابطة للمجال، متناغمة كليا مع قوانين الوجود، قاهرة لها، قاضية عليها، خارقة غشاءها بنور الوحي المطلق. يقول: ''إن القرآن الكريم، ببياناته القوية النافذة، إنما يمزّق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكر إلا أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرةٍ بديعة ومعجزاتها العظيمة. فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويُلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة، فاتحاً كنزاً لا يفنى للعلوم أمام العقول.[46]

لقد بدا واضحا أن الأساس الوجودي -وهو حركة الكون والكائنات وما يلزم عنها ويترتب عليها من لوائح ولوامع تدبرية- مجالا لتحرك الإشارات التي تبثها فراسة الذوق والبصيرة في وجدان المتدبر لكن مع استحضار شرط مصاحبة القرآن بكلياته؛ لأنه فهرسة الكون والوجود، تماما كما كان استحضار ضوابط اللغة العربية والبلاغة وعلم مقاصد الشريعة شرطا في الأساس القرآني سابقا.

٣- الأساس الإنساني:

جبل الإنسان في ابتداء الخلق على أجهزة واستعدادات وقوى إدراكية خلقها الله فيه وركبها في ماهيته لالتقاط المعاني والأحاسيس والصور، من تعاقب الأجسام وأعراضها في الكون. وهذه القوى الباطنية كما هي عند العلماء: القوة الباصرة التي تبصر الموجودات، والقوة الخيالية التي تبقي على صور تلك الموجودات بعد رؤيتها فهي تدرك الصور، ثم القوة الخيالية المدركة للمعاني، ثم القوة المفكرة وهي التي تركب المعاني على الصور وتحفظها.[47]

تساعد هذه القوى والاتستعدادات الإنسان على إدراك كنوز المخفيات واكتناه دفائنها كما تعينه على فهم الجليات والواضحات. فالله ''خلق الإنسان باستعداد زرع فيه أنواع المعالي، وجهزه بالحواس وبوجدان تتمثل فيه الموجودات، واعدّه لتعلّم حقائق الأشياء بأنواعها، ثم علّمه الأسماء كلها.[48]

من هنا كان هذا الإنسان عالما مصغرا يطوي منظومة خارقة من مظاهر الكون وتجليات الأسماء والصفات. يقول النورسي مبينا ذلك: ''الإنسان هو النسخة الجامعة والمظهر الأتمّ لكل التجليات لتنوع استعداداته وتكثر طرف استفاداته وعلمه، فيحيط بالكائنات بحواسه الخمس الظاهرة والباطنة لاسيما بوجدانه الذي لا قعر له''.[49]

لطالما إذن كانت الإنسانية في الإنسان تمده بقدرة خارقة وطاقة جبارة لفك لغز الإشارات المسطورة والمنظورة على السواء، بصورة لا توجد عند غيره من الكائنات الأخرى. والسبب في ذلك جاهزيته واستعداداته التي بُثَّتْ في حافظاته المتنوعة التي تلتقط الدلالات الظاهرة مثلما تستنطق الرموز والإشارات الخفية.

ثانيا: التجليات المقاصدية الكلية لنظرية التفسير الإشاري

إذا ثبت أن للإشارات مكانة مهمة في التفسير توجبها هيئات التفكير العقلي المتفاوتة ثم كليات القرآن والوجود الكوني والإنساني؛ وجب أن يكون لها في منظور النورسي مقاصد وغايات تلتز غير مفارقة بتلك المسالك التي أوجبتها. وهذه التجليات والمقاصد تتنوع بتنوع مسالك التدبر ومجالاته؛ تارة ترتبط بالقرآن وتارة ترتبط بالكون وترتبط بهما معا تارة أخرى. نكتفي بثلاث مقاصد كلية متنوعة المشرب نسوقها للتمثيل دون الحصر كما يلي:

١- قصد التناسب والانتظام والجمال

لاشك أن للكلمات القرآنية والكائنات الوجودية مقصدا كليا تحوم حوله خادمة له تدل عليه وتشرب من معينه. وذلك مثل التوحيد والعدالة والحشر والنبوة . فتتخذ

الأساليب القرآنية هيئات وكيفيات للتعبير عن المقصد والإشارة إليه بالمنطوق تارة وبالمفهوم تارة أخرى، فيكون للإشارة نفس الغاية التي للعبارة؛ وهي الدلالة على المقصد لكن بصورة جمالية ذوقية تنبو عنها العبارة في بعض الأحيان، إذ يغدو أسلوب الإشارة لباس زينة يلف العبارة ويظمها تماما كما تلف القوالب الاستعارية والتمثيلية المعنى الصريح، فيضفيان على التركيب مسحة جمالية بتساندهما وتعاونهما في تأدية الدلالة المقصودة والغاية المرجوة. يقول رحمه الله: ''اعلم! أن الكلام إنما يكون ذا قوّة وقدرة إذا كان أجزاؤه مصداقا لما قيل:

عِبَاراتُنا شَتى وَحسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الْجَمَالِ يُشير:

بأن تتجاوب قيودات الكلام ونظمه وهيئته، ويأخذ كلٌ بيد الآخر ويظاهره، ويمد كلٌ بقَدَرِه الغرضَ الكليّ مع ثمراته الخصوصية. كأن الغرض المشترك حوض يتشرب من جوانبه الرطبة، فيتولّد من هذه المجاوبة المعاونةَ، ومنها الانتظام، ومنه التناسب، ومنه الحسن والجمال الذاتي. وهذا السر من البلاغة يتلألأ من مجموع القرآن''.[50]

إن طبقات اللغة إنما هي نتيجة منطقية للتفاوت الحاصل في الأذهان البشرية ، لكن لابد من تضافر الكل لتحقق المقصد الكلي وخدمته. يسترسل في نص طويل: ''إن ثمرات الكلام هي: المعاني المتولدة في صور متعددة والمتفجرة في طبقات متفاوتة. فكما هو معلوم لدى الكيمياويين: أن الذهب عند استحصاله، يمرَّرُ في أنابيب معامل متعددة ويرسب ترسبات مختلفة في طبقات متفاوتة ويشكل بأشكال متنوعة. وفي الختام يحصّل على قسم من الذهب. كذلك الكلام الذي هو خريطة مختصرة أخذت من صورة المعاني المتفاوتة، فالمفاهيم المتفاوتة تتشكل صورها كالآتي:

إنه باهتزاز قسم من أحاسيس القلب بتأثيرات خارجية، تتولد الميول. وبتكّون معان هوائية منها وتعلّقها بنظر العقل؛ توجّه العقل إلى نفسها. ثم بتكاثف قسم من ذلك المعنى البخاري؛ يبقى قسم من الميول والتصورات معلقة. ثم بتقطر قسم آخر؛ يرغب فيه العقل. ثم القسم المائع؛ يتحصل منه ويُصلّب، فيضمه العقل ضمن الكلام. ثم ذلك المتصلب لأنه يتجلى ويتمثل برسم خاص به؛ يُظهره العقل بكلام خاص حسب قامته المخصوصة.

ومن هذا النبع ينفجر مسمّى ''الاسم''، ومعنى ''الفعل''، ومدلول ''الحرف'' ومظروف ''النظم''، ومفهوم ''الهيئة''، ومرموز ''الكيفية''، ومشار ''المستتبعات'' ومحرك ''الأطوار المشايعة للخطاب'' ومقصود ''الدال بالعبارة'' ومدلول ''الدال بالإشارة'' والمفهوم القياسي ''للدال بالفحوى'' والمعنى الضروري ''للدال

بالاقتضاء''... وأمثالها من المفاهيم كل منها ينعقد في طبقة من طبقات هذه السلسلة''[51] ومن ثم ''يجب السداد وعدم التمايل يميناً وشمالاً، للحيلولة دون التفرق في مسيل الغرض والتشتت في مجرى القصد، وذلك لئلا تهون الجوانب من الغرض بتشرب قوته، بل تمده الجوانب -كالحوض- بما تتضمه من الطراوة واللطافة. ويلزم أيضا -لسلامة السلاسة- تميّز مستقر القصد، وتعيّن ملتقى الغرض''.[52]

فبان أن أهم غاية عليا للتفسير الإشاري ودلالات الإشارة هو الانتماء إلى سلسلة الدلالات العقلية والنقلية واللغوية التي يفرضها المقام عند الانخراط في سلك عملية التفكير والتدبر، فيؤدي الجميع عند التجسيد اللغوي وحدة فنية تصويرية جمالية زائدة على تقرير المعنى الظاهري.

٢- قصد توحيد الخالق واستجلاء حكمته:

هذا بالنسبة للغة والنص القرآني، أما في الكون فتجري الحقيقة في المجرى نفسه دالة بالفحوى والرمز -فضلا عن الملاحظة المادية- على قصد توحيد الخالق وإفراده بالصنع والربوبية المطلقة والألوهية الحاكمة. إن اتساق الرموز والإشارات النورانية مع الدلالات الواضحة الصريحة في مجموع الكائنات؛ إنما يثبت وجود نظام كامل يحكمه قانون كلي لا يتخلف، الشيء الذي يدل على وجود الصانع الواحد الذي يشد خيوط هذا النظام القريبة والبعيدة في التدليل عليه، وإبراز وظيفة هاته المخلوقات المتمثلة في العبودية للخالق من خلال خدمة الإنسان المقصود الأكبر من الخلق. فمثلا إن رؤية الشمس تدل على وجودها، تماما كرؤية شعاعاتها حين تخترق كوةَ بيت مظلم فيرمقها شخص جالس في زاوية منه، أو كمن يتلمس هذه الشعاعات على جدول مائي، أو يتملى صورتها المنعكسة في مرآة. إذ المقصود واحد والدلالات متنوعة. فالحكمة موجودة في جميعها؛ ظاهرة بارزة في الشمس وخفية متلفعة بجلباب الربوبية المطلقة في الشعاع أو المرآة. فالخفي مع الواضح يشكلان بمجموعهما نظاما متكاملا ونسقا مستمرا يستحيل وجوده بغياب المخفيات والإشارات. يصور النورسي ذلك بقوله: ''كلّ فن من فنون الكائنات كشّاف بكلية قواعده عن اتساق وانتظام لا يعقل أكمل منهما؛ إذ كل نوع من الكائنات إما تشكّل فيه فن أو يقبل أن يتشكل. والفن عبارة عن قواعد كلية. وكلية القاعدة تدل على حسن النظام؛ إذ ما لا نظام له لا تجري فيه الكلية. ألا ترى أن قولنا ''كل عالم فهو ذو عمامة بيضاء''؛ إنما يصدق كلية إذا كان في ذلك النوع انتظام. فأنتج أن كل فن من الفنون الكونية بسبب كلية قواعده ينتج بالاستقراء التام نظاماً كاملا شاملا، وإن كل فن برهان نيّر يشير إلى المصالح والثمرات

المتدلية كالعناقيد في حلقات سلاسل الموجودات، ويلوِّح إلى الحِكَم والفوائد المستترة في معاطف انقلابات الأحوال. فترفع الفنونُ أعلام الشهادة على قصد الصانع وحكمته، كأن كل فن نجم ثاقب في طرد شياطين الأوهام''.[53]

فالإشارات مع العبارات في الكون كالنجوم في السماء تلوح إلى المقصود الكلي نفسه على قدر وظيفتها. ومن هنا كان فعل الذرة في فكر النورسي لا يتقاعس منزلة عن فعل المجرة، فهما سيان بالنسبة إلى القدرة في الدلالة على المقصود؛ ''لا مراتب في تلك القدرة ، فتتساوى بالنسبة إليها الذرات والنجوم والقليل والكثير''.[54]

قصد بيان خطورة الكفر الكونية الممتدة:

يدل الفناء الموجود في الكائنات باللزوم الضمني على أن الإنسان يكابد: إما فراقات أبدية إذا تخندق في زاوية الجحود والإلحاد والكفر، وإما فراقات مؤقتة تستحيل بعد موته وجودا سرمديا مفعما باللذة والنعيم المطلقين، فيرى في ذلك الفراق المؤقت تسريحا من الوظيفة الاستخلافية التي استُعْمِر في الأرض من أجلها، فيغدو مع تلك الكائنات على نسق تعبدي واحد وأخوة كونية شاملة.

وما نصبت الكائنات إلا لتعرفه بالمسلكين معا وتدله على النوعين كليهما . يقول بديع الزمان يلخص حقيقة الفناء والوجود في شعور المؤمن والكافر معا. أما المؤمن: ''فيرى أن المملكة كلها تعلن -في حفل التسريح العام- هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضاً أصوات الجوقة الموسيقية وهي تقدم ألحانها الحماسية مقترنة بالتكبيرات العالية والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للذين يساقون إلى الخدمة والجندية''.[55]

وأما الكافر ''فيرى في الكائنات مأتماً عمومياً، ويرى موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعداء، لا يعرف بعضٌ بعضاً، بل يعاديه، وترى جامداتها جنائز دهّاشة، وترى حيواناتها وأناسيّها أيتاماً باكين بضربات الزوال والفراق''.[56] وإذا ''أظلم سمع هذا الكافر بالكفر؛ صار أصم من تلك الأصوات اللذيذة، ولايسمع من الكائنات إلا نِياحات المأتم ونعْيات الموت، فلا يَلقى في القلب إلا غمَّ اليُتْمة -أي عدم الأحباب- ووحشة الغربة''.[57]

فلا جرم ''كان للكفر في زمان متناهٍ جناية غير متناهية بست جهات إشارية:

''منها: أن من مات على الكفر لو بقي أبدا لكان كافراً أبداً لفساد جوهر روحه، فهذا القلب الفاسد استعد لجناية غير متناهية.

ومنها: أن الكفر وإن كان في زمان متناه لكنه جناية على غير المتناهي، وتكذيب لغير المتناهي أعني عموم الكائنات التي تشهد على الوحدانية.

ومنها: أن الكفر كفرانٌ لنعمٍ غير متناهية.

ومنها: أن الكفر جناية في مقابلة الغير المتناهي وهو الذات والصفات الإلهية.

ومنها: أن وجدان البشر -بسر حديث "لاَ يَسَعُني أَرْضِي وَلا سَمائي"[58]- وإن كان في الظاهر والملك محصوراً ومتناهياً لكن ملكوتيته بالحقيقة نشرت ومدت عروقها إلى الأبد. فهو من هذه الجهة كغير المتناهي وبالكفر تلوث واضمحل".[59] من هنا سيق تزاحم الكائنات لخدمة الإنسان باعتباره ثمرة شجرة الخلقة، إذ ما انفكت تنبهه في جريانها بإشاراتها ورموزها، بوجودها وفنائها على خطورة الشرود عن باب الله والتيه الوجودي وسط ما لا ينتهي من السبل الفلسفية المظلمة، الحاجزة دون تذوق حلاوة طريق الله المستقيم في وجدانه، والاستضاءة بنوره الأزلي المنقذ له وحده دون سواه.

تلك هي قصة الفناء والوجود للكائنات والإنسان جميعا، وهي النتيجة الحتمية الموضوعة نصب عقل كل إنسان ليتملى مشاهدها في الكون، عساه يؤوب إلى رشده من حيث هو إنسان مخلوق مقهور تحت سلطة مبدل الكائنات ومجددها، فلا جرم كان هدف النورسي هو احتضان الإنسان الغربي بعقلنته حقائق الوجود والفناء وبيان جذورها المنطقية الفطرية وإن كانت تفاصيلها غيبية .

خاتمة

يمكن اعتبار محاولة تنزيل القوانين الكلية القرآنية والكونية على ما لا يحد من الحوادث والنوازل الإنسانية المعاصرة لحياة المتدبر ومعالجة إشكاليات العلوم؛ أهم فكرة سيطرت على وجدان النورسي وهو يرسي دعائم فريدته (كليات رسائل النور). وقد اختارت الدراسة التفسير الصوفي الإشاري بمكوناته القرآنية والوجودية أنموذجًا لرصد تجليات هذه الفكرة؛ مبينة بعض مظاهر تكامل التصوف مع جملة علوم متآخية معه مثل اللغة والأصول والمقاصد والمنطق في دعم نظرية التفسير الإشاري ووضعها موضعا وسطا يليق بها . وقد كانت الكليات أقرب منهج نظري للم مشارب الإشكال ودمج اللطائف والأذواق بالمساطر والقواعد، وتَبَيُّن بعض التجليات والمقاصد في دلالتها المزدوجة التي خطفت حقيقتها من تناغم الكون المنظور مع الكتاب المسطور وتعادلهما.

هكذا تأسست نظرية التفسير الإشاري عند عملاق الأناضول وامتدت عروقها إلى كل موضع في الشريعة نسج فيه الكلي خيوطه. وإنما اقتصرنا على سوق نماذج منها فقط؛ لأن المقصود بيان المنهج. وإنَّه حقا لَمَرام صعب ومطلب عسير، ولولا أنه على ذلك، لما وجدت الناس منذ القدم بين مُنْكِرٍ لها من أصلها، ومُتَحَيِّلٍ لها على غيرِ وجهها، ومعتقِدٍ أنها باب لا يسلك منها إلى المرام، ولا يملك فيها غير الإبهام!

لتبقى هذه الدراسة المتواضعة قبسا تنير درب المباحثة في الإشكال وتسهل على الدارسين -لمن شاء منهم- الإدلاج في بحره البهيم المتلاطم الأطراف وفق موازين العلم والمنهج السليم. وذلك من خلال مقترحات تدارسية قد يكون أهمها ما يلي:

- نظرية التفسير الإشاري عند نظار التفسير القرآني المعاصر مثل رشيد رضا وسيد قطب والطاهر ابن عاشور؛ دراسة تصف كليات النظرية وترصد أهم قواعدها وأصولها.

- التصوف عند النورسي؛ دراسة في كليات العلم وقواعده وأهم معالم التداخل العلمي والتكامل المنهجي بينه وبين سائر العلوم الأخرى القريبة منه المشكلة لوحدة الشريعة.

- مقاصد الجمال التعبدي عند النورسي؛ دراسة في نظرية الجمال كما قررها القرآن وفهمها النورسي بمختلف أنواعها وأطيافها وتجلياتها العمرانية والحضارية.

مصادر البحث ومراجعه

مصادر البحث

مؤلفات النورسي

١- الكلمات، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥م.
٢- اللمعات، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥.
٣- إشارات الإعجاز، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥م.
٤- صيقل الإسلام، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥م.

المصادر البحث (كتب علوم القرآن والسنة والأصول واللغة)

١- الألباني، ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الرياض، دار المعارف، ١٩٩٢م.
٢- السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، ت. عبد الإله نبهان، دمشق، طبع مجمع اللغة العربية، ط.١، ١٩٨٥م.
٣- الشاطبي إبراهيم بن موسى، الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، لبنان، دار الكتب العلمية، ط.٢، ٢٠٠٥م.
٤- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد، جواهر القرآن، ت. محمد رشيد رضا القباني، بيروت، دار إحياء العلوم ، ط.٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

المراجع العامة

١- التركاوي ادريس، جمالية النسق التعبدي أو موسيقى الكائنات من منظور النورسي: دراسة في الكليات، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند، العدد٨٧، ٢٠١٧م.
٢- جابر حسن، المقاصد الكلية في مناهج التفسير، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،٢٠٠٧م.
٣- الغزالي أبو حامد، تهافت الفلاسفة ، قدم له وضبط نصه أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط . ١، ٢٠٠٠م.

* * *

الهوامش

[1] دكتوراه أصول الفقه ومقاصد الشريعة جامعة ابن الزهر أغادير المغرب

[2] جابر حسن، المقاصد الكلية في مناهج التفسير، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٧م: ص٠٩.

[3] الشاطبي إبراهيم بن موسى، الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، لبنان، دار الكتب العلمية، ط.٢، ٢٠٠٥م: ص٢١٦.

[4] ذلك قوله: ''كُلُّ مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية (الفقه الجوارحي) أو آداب شرعية (التصوف والفقه الباطني) أو لا تكون عونا في ذلك فوضعها في أصول الفقه عارية''. انظر:
- الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، ت. الشيخ عبد الله دراز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط.١، ٢٠٠١م: ج١ ص١٩. وسنورد بعض ملامح الوحدة المنهجية بينه وبين النورسي في رصد الإشارات التفسيرية في المتن قريبا.

[5] السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، ت. عبد الإله نبهان، دمشق، طبع مجمع اللغة العربية، ط.١، ١٩٨٥م: ج١ ص٠٦.

[6] نفس المصدر والصفحة.

[7] الغزالي أبو حامد محمد بن محمد، جواهر القرآن، ت. محمد رشيد رضا القباني، بيروت، دار إحياء العلوم، ط.٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦ م: ص٣٧.

[8] قدمنا صورة أخرى لهذا التكامل من خلال نظريات الكليات تعلقت بالمقاصد الجمالية عند النورسي ينظر:
- التركاوي ادريس، جمالية النسق التعبدي أو موسيقى الكائنات من منظور النورسي: دراسة في الكليات، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند، العدد٨٧، ٢٠١٧م. وتعد الدراستان معا ديباجة بحث متكامل حول الكليات عند النورسي تجاوز الحفر فيها عقدا من الزمن نسأل الله التوفيق إلى إتمامه.

[9] النورسي سعيد، إشارات الإعجاز، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥م: ص ٢٣٨.

[10] النورسي سعيد، الكلمات، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥م: ص٤٦٦.

[11] الشاطبي، الموافقات، مصدر سابق: ج٣ ص٣٠٢.

[12] النورسي سعيد، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص١٤٨.

[13] المصدر نفسه: ص٤٨.

[14] المصدر نفسه: ص٦٩.

[15] المصدر نفسه: ٤٨.

[16] الشاطبي، الموافقات، مصدر سابق: ج٣ ص٣٠٢.

[17] النورسي سعيد، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص٤٧.

[18] المصدر نفسه: ص١٠٦.

[19] النورسي سعيد، اللمعات، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥: ص٤٧.
[20] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص٢٦.
[21] نفس المصدر والصفحة.
[22] المصدر نفسه: ١٧٥.
[23] الشاطبي، الموافقات، مصدر سابق: ج٣ ص٢٨٢.
[24] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص ٢٠٥.
[25] الشاطبي، الموافقات، مصدر سابق: ج٤ ص١٨١.
[26] النورسي، اللمعات، مصدر سابق: ص٤٧.
[27] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص٤٤.
[28] المصدر نفسه: ص٤٩
[29] المصدر نفسه: ص١١٩.
[30] المصدر نفسه: ص١٢١.
[31] المصدر نفسه: ص١٢٠.
[32] النورسي سعيد، صيقل الإسلام، ضمن كليات رسائل النور، القاهرة، طبع شركة سوزلر للنشر، ط.٤، ٢٠٠٥م: ص١١٣.
[33] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص١١٣-١١٤.
[34] النورسي، اللمعات، مصدر سابق: ص٤٦٣.
[35] المصدر نفسه: ص١٠٧.
[36] النورسي، اللمعات، مصدر سابق: ص١٠١.
[37] المصدر نفسه: ص١٠٧.
[38] نفس المصدر والصفحة.
[39] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص١١٩.
[40] النورسي، الكلمات، مصدر سابق: ص٦٩٣.
[41] المصدر نفسه: ٦٩.
[42] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص٦١.
[43] النورسي، الصيقل، مصدر سابق: ص٦٩٥.
[44] الشاطبي، الموافقات، مصدر سابق: ٣ /٣٠٣.
[45] النورسي، الصيقل، مصدر سابق: ص١١٥.
[46] النورسي، اللمعات، مصدر سابق: ص١٥٠.
[47] الغزالي أبو حامد، تهافت الفلاسفة، قدم له وضبط نصه أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط . ١، ٢٠٠٠م: ص١٧٥- ١٧٦.
[48] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص٢١.
[49] المصدر نفسه: ٢٤٠.
[50] المصدر نفسه: ١٢١-١٢٢.
[51] النورسي، الصيقل، مصدر سابق: ص١٠٥.
[52] نفس المصدر والصفحة.
[53] المصدر نفسه: ١٥٠.
[54] النورسي، اللمعات، مرجع سابق: ص٤٨٤.

[55] النورسي، الكلمات، مرجع سابق: ص١٠.
[56] المرجع نفسه: ص٢٥٦.
[57] النورسي، إشارات الاعجاز، مرجع سابق: ص٧٨.
[58] قال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وذكرُ جماعةٍ له من الصوفية لا يريدون حقيقة ظاهره من الاتحاد والحلول لأن كلا منهما كفر، وصالحو الصوفية أعرف الناس بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإنما يريدون بذلك أن قلب المؤمن يسع الإيمان بالله ومحبته ومعرفته. أ هـ.
وانظر: أحمد بن حنبل، الزهد ص٨١؛ الغزالي، إحياء علوم الدين ١٥/٣؛ الديلمي، المسند ١٧٤/٣؛ الزركشي، التذكرة في الأحاديث المشتهرة ص١٣٥؛ السخاوي، المقاصد الحسنة ص٩٩٠؛ العجلوني، كشف الخفاء ٢٥٥/٢. وضعفه الألباني وأخرجه بلفظ "ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن، النقي التقي الوادع اللين". انظر: الألباني، ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الرياض، دار المعارف، ١٩٩٢م: رقم ٥١٠٣، ١١/ ١٧٦.
[59] النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق: ص٨٦.